أثر الإحالة في سبك النص القرآني
دراسة نحوية نصية
لسورة محمد ﷺ

د٠ يسري صبحي الصاوي (*)

تمهيد :

(١)

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، فإن هذا البحث التطبيقي يأتي في إطار ما يسمى "نحو النص"، ولا يمكن لباحث في مجال الدراسات النحوية المعاصرة أن ينكر ما لنحو النص من قيمة رفيعة في تحليل النصوص تحليلا لغويًّا يعتمد على النظرة الكلية الموسعة للنص، حيث" الاهتمام بالاتصال وأطرافه وشروطه وقواعده وخواصه وآثاره، وأشكال التفاعل، ومستويات الاستخدام، وأوجه التأثير التي تحققها الأشكال النصية في المتلقي، وأنواع المتلقين، وصور التلقي، وانفتاح النص وتعدد قراءاته"(١). ولعل تلك النظرة الشمولية في التحليل هي أهم ما يميز نحو النص؛ إذ إنه يقدم تفسيرات لكثير من الظواهر التي لم تكن في دائرة اهتمام النحو بمفهومه التقليدي، ويعد السبك أو الترابط النصي أحد أهم تلك الظواهر (٢).

ويرى كثير من الباحثين أن الإرهاصات الأولى لنحو النص كانت على يد زيلج هاريس في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، حيث نشر دراستين

(*) المدرس بقسم النحو والصرف والعروض – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(١) علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد بحيري، ص١٤٠.

(٢) انظر: لسانيات النص، د. محمد خطابي، ص٢٧.

تحت عنوان" تحليل الخطاب"، دعا فيهما إلى ضرورة تجاوز الجمل إلى دراسة النص بكل ما يحيط به، ثم تطور نحو النص بعد ذلك بما قدمه فان دايك من دراسات نصية، ثم ترسخ نحو النص ونضج على يد الأمريكي روبرت دي بوجراند وغيره [١].

ولكن هل يعني ذلك أن النحو بمفهومه التراثي التقليدي، أو ما يطلق عليه – مجازًا – " نحو الجملة" لم يعد له وجود؟ يجيب عن هذا التساؤل أحد مؤسسي نحو النص، وهو فان دايك الذي يرى أن نحو الجملة " يشكّل جزءًا(كمًّا) غير قليل من نحو النص"[٢]. كما يؤكد رينيه ويلك أنه لا يمكن لباحث أن يكشف عن خصائص الأساليب "ما لم يلم بالنحو بكل فروعه: بالصوتيات، وعلم الأصوات الدالة، بالصرف، والتركيب، وعلم المعاجم، وعلم المعاني"[٣]. ويقرر أستاذنا الدكتور تمام حسان_ بحق_ في مقدمته لكتاب النص والخطاب والإجراء أنه " ليس لأحد الاتجاهين أن يلغي الآخر، فلا الاعتراف بالنصية يلغي الدراسات التحليلية، ولا تغني الدراسات التحليلية عن الاعتراف بالدراسة النصية"[٤]. كما يؤكد أستاذنا الدكتور سعد مصلوح أن إهمال نحو الجملة " يعني إهدار أربعة عشر قرنًا من النتاج اللساني المتميز الذي هو إنتاج قوم هم من أعلم الناس بفقه العربية وأسرار تركيبها، وذخائر تراثها، وما يكون لنا حقًّا إذا كنا من أولي الألباب أن نلوي رؤوسنا إعراضًا عن كنوز هي عمر هذه الأمة، ومركب

(١) لمزيد من التفصيل عن نشأة نحو النص وتطوره، انظر على سبيل المثال: علم لغة النص، ص١٧ وما بعدها، ونحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، د. مصطفى النحاس، ص ٢٩ وما بعدها، ونحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي، ص٣٣ وما بعدها.

(٢) علم لغة النص، ص١٢٠.

(٣) النحو والدلالة، د. محمد حماسة عبد اللطيف، ص٩.

(٤) النص والخطاب والإجراء، مقدمة المترجم، ص٤. وانظر علم لغة النص، ص١٨٣.

جوهري من مركبات ثقافتنا"[١]، لكن في الوقت ذاته يقرر أستاذنا الدكتور سعد أنه يعد تعطيلا للنحو قصره على غاية" ضئيلة نحيفة لا تليق بجلاله وثرائه، ونعني بها عصمة اللسان من الزلل"[٢].

فنحو الجملة، أو النحو التراثي، لم يفقد قيمته أو دوره، إنما يعد أساسًا وبداية لنحو النص؛ ولكل منهما "حدود معينة، وليس لأحدهما أن يقوم بإلغاء الآخر، فهما فرعان لعلم واحد وهو النحو، فالحاجة إليهما معًا ضرورية"[٣]. كما أن كل محاولات الفصل بين نحو الجملة ونحو النص باءت بالفشل؛ نظرًا لتلك العلاقة الوثيقة بينهما [٤]. ويؤكد الدكتور سعيد بحيري_ وهو واحد من كبار المهتمين بقضايا نحو النص في العصر الحديث_ تلك الحقيقة بقوله: " كان التراث النحوي السابق، بكل ما يضمه من تصورات ومفاهيم وقواعد وأشكال وصف وتحليل وغير ذلك_ الأساس الفعلي الذي بنيت عليه هذه الاتجاهات النصية، بكل ما تتسم به من تشعيب أفكارها وتصوراتها ومفاهيمها"[٥]. فالنقاط المشتركة بين الاتجاهين كثيرة، خاصة إذا تعاملنا مع النحو التراثي بمفهومه الرحب الذي يتسع لكثير من الظواهر والقضايا التي يدرسها نحو النص، مع ملاحظة اتساع دائرة نحو النص؛ نظرًا لدخول علوم لغوية وغير لغوية في مجاله. وفي ضوء كل ذلك، رأينا ضرورة النص في عنوان هذا البحث على أنه دراسة " نحوية نصية"، إشارة إلى الجمع بين كلا الاتجاهين في التحليل، والإفادة من معطيات كل منهما.

---

(١) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد مصلوح، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٣) نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي، ص١٣٣.

(٤) انظر: علم لغة النص، ص١١٩.

(٥) المرجع السابق، ص١١٨.

(٢)

ومن المقرر في نحو النص أن هناك سبعة معايير اقترحها اللساني روبرت دي بوجراند، تُمثل الأساس الرئيس لعملية التحليل النصي، وسوف نسرد هذه المعايير بصورة موجزة فيما يأتي [١]:

١- السبك أو التضام (cohesion): وهو معيار الترابط الرصفي، ويقصد به التماسك اللفظي الظاهري على مستوى النص، سواء أكان نصًّا مكتوبًا أم منطوقًا، عن طريق الوسائل النحوية، بحيث تبدو وحدات النص مترابطة متماسكة.

٢- الالتحام أو الحبك أو التقارن (coherence): والمقصود به التماسك والترابط المعنوي على مستوى شبكة المفاهيم والعلاقات القائمة في النص، وبهذا يتم احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقات على نحو يستدعي فيه بعضها بعضًا، ويتعلق بواسطته بعضها ببعض.

٣- القصد أو القصدية (intentionality): والمقصود الأهداف والغايات التي يريد منتج النص إيصالها للمتلقي، ولا يدخل ما كان من دون قصد، ككلام السكران والناسي.

٤- القبول أو التقبلية (acceptability): ويتعلق هذا المعيار بمدى قبول المتلقي للنص، بوصفه نصًّا متماسكًا لفظيًّا ودلاليًّا، خاضعًا لنظام اللغة غير خارج عنها.

---

(١) لمزيد من التفصيل عن تلك المعايير، انظر على سبيل المثال: النص والإجراء والخطاب ص١٠٣ وما بعدها، ومدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، ص ١١ وما بعدها، وعلم لغة النص، ص١٢٧ وما بعدها، ونحو النص، د. أحمد عفيفي، ص ٧٥ وما بعدها.

٥- رعاية الموقف أو الموقفية (situationality): والمقصود أن يكون النص متوافقًا مع الموقف أو السياق الذي يقدَّم فيه.

٦- التناص (intertextuality): والمقصود أن يكون النص على علاقة بنص آخر، كالاشتراك في الموضوع نفسه، أو التوضيح، أو التفصيل، أو التلخيص.... إلخ.

٧- الإعلامية (informativity): والمقصود مدى جدة الوقائع التي يقدمها النص، وكلما كانت الوقائع غير متوقعة، كان ذلك أفضل، ويتطلب من المتلقي بذل جهد أكبر لاستيعابها.

وليس شرطًا وجود المعايير السبعة السابقة في كل نص، " وإنما يتحقق الاكتمال النصي بوجودها، وأحيانا تتشكل نصوص بأقل قدر منها"(١). ونلاحظ أن المعيار الأول (السبك) والثاني (الالتحام أو الحبك) هما أوثق المعايير بالنص (٢)، في حين أن القصد والقبول يتعلقان بمنتج النص ومتلقيه، أما الإعلامية والمقامية والتناص فهي معايير تتصل بالسياق المادي والثقافي للنص (٣).

ويعنينا – في هذا المقام – المعيار الأول وهو السبك، الذي كان مثار اهتمام الدارسين في العصر الحديث، لبيان أثره المهم في تماسك النص وترابطه واتساقه وانسجامه (٤). وقد آثرنا هذا المصطلح نظرًا لاستعماله في التراث العربي،

---

(١) علم لغة النص، ص١٢٧.

(٢) انظر: النص والإجراء والخطاب، مقدمة المترجم، ص٨.

(٣) انظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد مصلوح، ص ٢٢٦.

(٤) انظر على سبيل المثال: النص والإجراء والخطاب، روبرت دي بوجراند، وبخاصة الفصل الخامس " الكفاءة النصية". ولسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، د. محمد خطابي، وتعد هذه الدراسة من أعمق الدراسات في هذا المجال نظرًا وتطبيقًا، وهي في الأصل أطروحته للدكتوراه، قدمها عام ١٩٨٨ تحت عنوان" مظاهر انسجام الخطاب" بإشراف الدكتور محمد مفتاح. وقد نشرها الباحث بالعنوان الجديد عام ١٩٩١. وانظر كذلك: نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، د. مصطفى النحاس. ونحو النص، د. أحمد عفيفي، خاصة المبحث السادس الذي خصصه للحديث عن أشكال الترابط النصي ووسائله.

إذ ورد عند الجاحظ في معرض حديثه عن معيار الجودة في النصوص، يقول: " وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا واحدًا، **وسبك سبكًا واحدًا**، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان" (١).

والسبك – كما ذكرنا – هو الارتباط أو التماسك الشديد بين وحدات النص من خلال الوسائل النحوية المتعددة، التي تتعاضد فيما بينها لإبراز المراد من النص. ويؤكد أستاذنا الدكتور سعد مصلوح نحوية هذه الوسائل بإطلاقه مصطلح "الاعتماد النحوي" عليها، ويقرر سيادته أن هذا الاعتماد النحوي يتحقق" في شبكة هرمية ومتداخلة من الأنواع، هي:

١-الاعتماد في الجملة.

٢- الاعتماد فيما بين الجمل.

٣- الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة.

٤- الاعتماد فيما بين الفقرات أو المقطوعات.

٥- الاعتماد في جملة النص"(٢)، ويعد هذا المعيار من المعايير المشتركة بين النحو بمفهومه التقليدي، ونحو النص؛ إذ لا يمكن للباحثين في مجال نحو النص أن يتجاوزوا تلك الوسائل النحوية بحال من الأحوال.

وقدم أستاذنا الدكتور تمام حسان في كتابه الخلاصة النحوية تصورًا عامًّا لوسائل الربط، وقسم الربط قسمين: أحدهما الملفوظ، والآخر الملحوظ، ويقوم هذا النوع الأخير على إدراك علاقات، مثل: التفسير، والسببية، والتفصيل .... إلخ. أما الربط الملفوظ فيكون في الجملة، وفي السياق، فأما الربط في السياق فيكون

---

(١) البيان والتبيين، ج١، ص٦٧. ولمزيد من التفصيل عن الجهود التراثية في مجال الترابط والاتساق النصي، انظر: لسانيات النص، د. محمد خطابي، الباب الثاني، ص٩٥ وما بعدها.

(٢) في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد مصلوح، ص ٢٢٦/٢٢٧.

بالإشارة إلى ما سبق، أو إعادة صدر الكلام، أو الإشارة إلى ما يلي، وأما الربط في الجملة فيكون بالأدوات، مثل: حروف العطف والاستثناء، ويكون بالمطابقة في الشخص، والعدد، والنوع، والتعيين، والإعراب، **وأخيرًا يكون بالإحالة** التي تكون بإعادة اللفظ، أو إعادة المعنى الإسنادي، أو إعادة المعنى الإفرادي، أو بعود الضمير، أو بالإشارة، أو بالاسم الموصول، أو بما فيه أل [١].

ويهمنا من وسائل الربط السابقة **الإحالة**، التي تعد من أهم عناصر سبك النص وترابطه، " وهي تقوم بهذه الوظيفة بواسطة عملية الإحالة التي تربط بينها وبين المحال إليه بقرينة مذكورة في الكلام، فيستتبع ذلك الربط بين جزء الكلام الذي فيه المحيل، وجزئه الذي فيه القرينة" [٢]. ويرى أستاذنا الدكتور تمام حسان أن الأصل في الإحالة هو تكرار اللفظ ذاته، وليس عن طريق الإضمار أو غيره من صور الإحالة [٣]، وقد يكون ذلك مقبولا نظريًّا، غير أن الواقع العملي يثبت أن الإحالة عن طريق إعادة اللفظ ذاته لا ترقى إلى نسبة شيوع الوسائل الأخرى كما سوف نبين.

---

(١) انظر: الخلاصة النحوية، ص٨٩. وانظر: البيان في روائع القرآن، ج١، ص٢٣٥. ويمكن إضافة وسائل أخرى، مثل: الحذف، والتقديم والتأخير، والشرط، والنفي، والاستفهام ... إلخ.

(٢) الإحالة في القرآن الكريم: دراسة نحوية نصية، د. تامر أنيس، ص٣٧٨.

(٣) انظر: الخلاصة النحوية، ص٩٠. ولمزيد من التفصيل عن مفهوم الإحالة وأنواعها ووظائفها، انظر على سبيل المثال: الإحالة في القرآن الكريم، د. تامر أنيس، وهي تعد من أوفى الدراسات في هذا الموضوع، وهي أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها الباحث تحت إشراف أستاذنا الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف عليه رحمة الله. وانظر: الإحالة في نحو النص: دراسة في الدلالة والوظيفة، د. أحمد عفيفي. ونحو النص، د. مصطفى النحاس، ص٦١ وما بعدها، وتحليل النص، د. محمود عكاشة، ص ٢١٩ وما بعدها. وانظر: البيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان، ج١، ص٢٣٥ وما بعدها.

ويبين أستاذنا الدكتور أحمد عفيفي أن الإحالة" علاقة معنوية بين ألفاظ مُعَيّنة وما تشير إليه من أشياء أو معانٍ أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدل عليها المقام" (١) فقد تكون الإحالة **مقامية**، بحيث تُحيل إلى ما هو خارج النص، وقد تكون إحالة **نصية** تحيل إلى عنصر داخل النص، وهذه الإحالة النصية قد تكون "قبلية" إذا أحالت إلى السابق، وقد تكون "بعدية" إذا أحالت إلى اللاحق، وللإحالة النصية النصيب الأكبر في ترابط النص وتماسكه؛ ذلك أنها تحيل إلى عنصر داخلي من العناصر المكونة للنص (٢). غير أن ذلك لا يقلل من شأن الإحالة الخارجية في قضية الترابط النصي، خاصة عندما توظَّف توظيفًا جيدًا، كما سوف نرى من خلال التطبيق على السورة الكريمة.

وتتعد صور الإحالة، فقد تكون عن طريق الضمير، أو الإشارة، أو الموصول، أو الوصف، أو "أل"، أو التكرار، سواء بإعادة اللفظ أو إعادة المعنى(٣). وفي دراستنا التطبيقية هذه لسورة "محمد" – صلى الله عليه وسلم– سوف ينصب حديثنا على الإحالة بالضمير، والإشارة، والاسم الموصول، والتكرار، لكن قبل ذلك سنوضح الهيكل البنيوي للسورة الكريمة، وأهم ما اشتملت عليه من مفاهيم وقضايا، ليظهر لنا بعد ذلك كيف تعاضدت عناصر الإحالة معًا لتكوين نص مسبوك مترابط أشد الارتباط. كما سنحاول الكشف عن الوظائف الدلالية الأخرى لعناصر الإحالة.

الهيكل البنيوي للسورة الكريمة:

تتكون سورة "محمد" – صلى الله عليه وسلم– من ثمان وثلاثين آية، وهي سورة مدنية بالاتفاق، نزلت بعد سورة الحديد. وهي السورة السابعة والأربعون

---

(١) الإحالة في نحو النص: دراسة في الدلالة والوظيفة، ص١٣.

(٢) انظر: لسانيات النص، ص١٧.

(٣) انظر: البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، ج٢، ص٢٣٥ وما بعدها.

بحسب ترتيب المصحف الشريف، والخامسة والتسعون بحسب النزول [١]. وتتميز السورة الكريمة بحجم متوسط، يتيح لنا سهولة رصد عناصر الإحالة فيها، كما أنها تتميز ببعض الظواهر التي تنفرد بها كما سوف نبين.

ولهذه السورة الكريمة عدة أسماء، منها: سورة "محمد"، و"سورة القتال" و"سورة الذين كفروا"[٢]. ويرى أحد الباحثين أن " سورة القتال" عنوان مناسب تمامًا لمضمون السورة؛ لأن القتال" هو موضوعها، والقتال هو العنصر البارز فيها، والقتال في صورها وظلالها، والقتال في جرسها وإيقاعها"[٣] ولا شك في أننا نتفق مع سيادته في أن القتال أحد المحاور المهمة في السورة، لكنه ليس المحور الأبرز، فقد ذُكر القتال – أو ما يرادفه– صراحة في أربع آيات فقط من الآيات الثمانية والثلاثين (الآيات: ٤–٧–٢٠–٣٥)، أي حوالي ١٠% فقط من مجموع آيات السورة، فكيف يكون القتال هو الموضوع الغالب عليها؟ كما أن تسمية السورة بسورة القتال عند بعض القدماء ليست دليلا على أن القتال هو الموضوع الغالب عليها، وإلا لكانت قصة بقرة بني إسرائيل هي الغالبة على سورة البقرة، رغم أن قصة البقرة مجرد حَدَث صغير في السورة الكبيرة، فقد شغلت قصة البقرة سبع آيات فقط من مجموع آيات السورة البالغ عددها مئتين وستًّا وثمانين آية. والآية الكريمة قالت: " وذكر فيها القتال" " لأن السورة ليست كلها متمخضة لذكر القتال، فإن سور القرآن ذوات أغراض شتى"[٤].

---

(١) انظر: من هدي القرآن الكريم في علاقات المسلمين بغيرهم، د. محمد إبراهيم شريف، ص٦/٧.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص٤٥٢. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٩، ص٦٢٧٤. ومفاتيح الغيب للرازي، ج١٤، ص٢٤١، والبحر المحيط لأبي حيان، ج٨، ص٩٧. والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، ج٩، ص٦٨٣. وتفسير الشعراوي، ص١٤٢٧٥. والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٦، ص٧١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج٦، ص٣٢٧٨.

(٤) التحرير والتنوير، ج٢٦، ص ١٠٧.

ويوضح الفيروزابادي تلك الأغراض المتعددة في بيانه لمقصود السورة بقوله: "معظم مقصود السورة: الشكاية من الكفار في إعراضهم عن الحق، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم، والأمر بالنصرة والإيمان، وابتلاء الكفار في العذاب، وذكر أنهار الجنة من ماء ولبن وخمر وعسل، وذكر طعام الكفار وشرابهم، وظهور علامة القيامة، وتخصيص الرسول_ صلى الله عليه وسلم_ بأمره في الخوض في بحر التوحيد، والشكاية من المنافقين، وتفصيل ذميمات خصالهم، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان، وذم البخل في الإنفاق، وبيان استغناء الحق تعالى، وفقر الخلق "[1] .

والمتأمل للسورة الكريمة يدرك أن الملمح الأبرز الغالب عليها هو **الموازنة أو المقابلة بين فريق المؤمنين، وغير المؤمنين من الكفار والمنافقين وأهل الكتاب.**

وتتضح تلك الموازنة منذ بداية السورة، حيث يكشف مفتتح السورة عن موضوعها، إذ تبدأ ببيان حال الكافرين برسالة محمد_ صلى الله عليه وسلم_ الصادّين عن سبيل الله، وأن الله أحبط أعمالهم فلا قيمة لها، **في مقابل** المؤمنين برسالة محمد الذين يعملون الصالحات، وهؤلاء يغفر الله لهم ويصلح أحوالهم. حيث " جاء في **مقابلة** الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين، هي الإيمان **مقابل** الكفر، والإيمان بما نزل على محمد _صلى الله عليه وسلم_ **مقابل** الصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات **مقابل** بعض ما تضمنه" أضل أعمالهم"، وكفر عنهم سيئاتهم **مقابل** بعض آخر ما تضمنه " أضل أعمالهم"، وأصلح بالهم **مقابل** بقية ما تضمنه" أضل أعمالهم"، وزيد في جانب

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزابادي، ج١، ص٤٣٠. وانظر: مفاتيح الغيب للرازي، ج١٤، ص٢٤١ وما بعدها. وانظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٧١ وما بعدها.

المؤمن التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله" وهو الحق من ربهم" وهو **نظير** لوصفه بسبيل الله في قوله " وصدوا عن سبيل الله"[١].

ثم يبين الله سبب التفرقة بين الفريقين، فالكفار اتبعوا الباطل، والمؤمنون اتبعوا الحق الذي أُنزل على الرسول محمد _صلى الله عليه وسلم_، وهي المرة الوحيدة التي يُنَصّ فيها على وجوب الإيمان برسالة محمد صراحة، ولعل ذلك أدعَى أن تسمى السورة باسمه صلى الله عليه وسلم، صحيح أن وجوب الإيمان بالرسول ذكر في سور كثيرة، منها سورة النساء، وهي أسبق في النزول من سورة محمد، لكن اسم" محمد" لم يذكر صراحة، حيث تقول الآية:" مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا " النساء:٨٠، ولم يذكر اسم الرسول محمد– صلى الله عليه وسلم– في السورة كلها، وكذلك في سورة آل عمران، حيث تقول الآية: " كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " آل عمران:٨٦، والآية التي ذكر فيها اسم "محمد" في آل عمران كانت في سياق أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – بشر رسول، يموت كما يموت البشر: " وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ " آل عمران: ١٤٤، وكذلك في المواضع الأخرى التي ذكر فيها اسم محمد، لم يكن السياق يوجب الإيمان برسالة محمد[٢]. والتصريح باسم محمد_ صلى الله عليه وسلم_ يلفت الانتباه إلى أن ما جاء به كل الرسل لا يكفي لاكتمال الإيمان، بل لابد من الإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) التحرير والتنوير، ج٢٦، ص ٧٤/٧٥.

(٢) ذكر اسم الحبيب محمد_ صلى الله عليه وسلم_ أربع مرات في القرآن الكريم. في آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، على الترتيب بحسب النزول.

وهؤلاء الكفار الذين صدوا عن سبيل الله ولم يتبعوا محمدًا – صلى الله عليه وسلم– ينبغي التصدي لهم ومقاتلتهم، وقد بيَّن الله للمؤمنين كيف يتعاملون معهم في الحرب، ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة، **في مقابل** العثار والخسران للكفار الذين لم يتعظوا بما حدث للأمم السابقة التي كفرت بالله؛ لذلك فالله ولي المؤمنين وناصرهم، أما الكفار فلا ناصر ولا معين لهم. **وفي مقابل** انحطاط منزلة الكافرين وإهانتهم، نجد رفعة شأن المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله بنصرتهم وتثبيت أقدامهم [١]. وفي الآخرة نعيم مقيم وجنات للمؤمنين، **أما الكفار** فالنار مصيرهم ومثواهم، ثم يُطمئن الله نبيه الكريم حتى لا يخشى بأس الكافرين، فهناك قرى كانت أقوى وأشد من هؤلاء، لكن الله أهلكهم وأخزاهم.

ويؤكد الله استحالة التسوية بين المؤمنين المتَّبِعين لصراطه المستقيم، وأولئك الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم، فالمؤمنون لهم في الآخرة كل أشكال النعيم في المأكل والمشرب، في مقابل الكفار الذين يشربون ماء حارًّا يقطع أمعاءهم. ولنلاحظ: " قوله" على بينة" **في مقابلة** "زين له سوء عمله" و" من ربه" **في مقابلة** قوله " واتبعوا أهواءهم"، والجنة **في مقابلة** النار في قوله" خالد في النار"، والماء الحميم في مقابلة الأنهار ... وأما الثمار فلم يذكر مقابلها، لأن في الجنة زيادة مذكورة، فحققها بذكر أمر زايد"[٢]

ثم تبدأ الآيات في الحديث عن علاقة المؤمنين بفئة أخرى من الكفار **وهم المنافقون**، أولئك الذين يبطنون ما لا يظهرون، حيث كانوا يتظاهرون بالحرص على الحضور والرغبة في الاستماع لكلام النبي_ صلى الله عليه وسلم_ لكنهم يضمرون الشر والبغضاء، ولا يفهمون شيئًا مما يستمعون إليه؛ لأنهم لم يخلصوا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٨٣.

(٢) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٧٣. وانظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص ٩٤ وما بعدها.

في استماعهم بل اتبعوا الباطل فَضَلُّوا ضلالا بعيدًا [١]. **وفي المقابل** نرى المؤمنين قد أخلصوا واتبعوا الحق، فزادهم الله هداية " حتى ارتقوا من درجة المهتدين إلى درجة الهادين"[٢].

وليس هؤلاء المنافقون غافلين عما يستمعون إليه فقط، بل هم غافلون عما ينتظرهم من حساب وعقاب في الآخرة، فهل ينتظرون مجيء الساعة ليتدبروا ويعتبروا؟ إن كان الأمر كذلك فقد ظهرت علامات الساعة ومقدماتها، ومن أعظم تلك العلامات بعثة النبي محمد _صلى الله عليه وسلم_ ومع ذلك فهم سادرون في غيهم وضلالهم. **وفي المقابل** يتوجه الخطاب إلى الرسول والمؤمنين ليوجههم إلى" طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار، والشعور برقابة الله، وليعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون متقلبون بين الخوف والرجاء ... وأساس هذا كله عند المؤمنين توحيدهم لله الذي يقوم عليه بناء الإيمان، وتتأسس عليه الطاعات والعبادات"[٣].

ثم توازن الآيات بين موقف المؤمنين، وموقف هؤلاء المنافقين من قضية الجهاد في سبيل الله، ففي حين كان المؤمنون المخلصون يتطلعون إلى نزول سورة جديدة من القرآن الذي يتدبرون آياته، ويجدون سعادتهم في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وتكون هذه السورة مشتملة على التصريح بمواصلة الجهاد ضد الكفار الذين يصدون عن سبيل الله_ **نجد المنافقين** يفقدون تماسكهم ويصيبهم الهلع لما سمعوا من أمر الجهاد ولا يحاولون فهم القرآن ولا تدبره، وقد نقل القرآن الكريم في موضع آخر ذلك المشهد للمنافقين في قوله تعالى: " فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ص١٤٣١١.

(٢) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٧٦.

(٣) من هدي القرآن الكريم في علاقات المسلمين بغيرهم، د. محمد شريف، ص١٧٦. (بتصرف بالحذف).

كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا " من الآية ٧٧ سورة النساء. ويتعلل هؤلاء المنافقون بأن القتال إفساد وهلاك للنفوس وقطع للأرحام، لكن الله_ عز وجل_ رد عليهم بأن نكوصهم وإعراضهم عن الجهاد لم يمنعهم من إشعال الحروب بينهم لأتفه الأسباب، فيفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم.

وينقل القرآن مشهدًا آخر لهؤلاء المنافقين، وهم يرتدّون على أدبارهم بعد أن سيطر الشيطان عليهم، فأنكروا الحق واتبعوا الباطل، وتآمروا _ سرًّا _ مع اليهود في المدينة، ومَن على شاكلتهم، الذين يكرهون الهدى والحق الذي أنزله الله تعالى لهداية البشرية، بحيث يعادون النبي، ويوهنون أمره، ويقعدون عن الجهاد [١]. وقد حكى القرآن الكريم في سورة الحشر شيئًا من ذلك، قال تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ". الآية: ١١. وقد توعدهم الله بخاتمة سيئة، حيث تضرب الملائكة وجوهم وأدبارهم بصورة مُذلة مهينة، ولن يكون لأعمالهم في الدنيا أي قيمة، فقد أُحبطت بسبب اتباعهم الباطل، وكرههم الحق.

وقد كانوا يظنون أن الله لن يكشفهم ويفضحهم، لكن الله فضحهم وأنزل فيهم سورة " براءة" [٢]، ولو أراد الله لعرَّفهم جميعًا للنبي، لكنه _سبحانه وتعالى_ لم يفعل ذلك في جميع المنافقين، سترًا منه على خلقه، وكان النبي يعرفهم فيما يبدو من كلامهم الدال على حقدهم وكرههم، ثم يبيِّن الله للمؤمنين أن الابتلاء والاختبار بالتكليفات الشرعية وسيلة مهمة لكشف هؤلاء؛ فبهذا الابتلاء " يتميز المجاهدون

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٩، ص٦٣٠٠ / ٦٣٠١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ج٩، ص٦٣٠٣.

الصابرون من غيرهم، ويُعرف ذو البصيرة في دينه من ذي الشك والحيرة فيه"[١].

وتُختَم الموازنة ببيان النتيجة النهائية المترتبة على كل ما سبق، حيث تؤكد خسران الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، ولم يتبعوا النبي _صلى الله عليه وسلم_ في حين تلفت نظر المؤمنين إلى وجوب الثبات على طاعة الله ورسوله حتى لا تبطل أعمالهم، وضرورة التصدي لهؤلاء الكفار المارقين، وعدم الانشغال بالدنيا التي ألهت الكفار وأبعدتهم عن رحمة الله، وأخيرًا، يحذر الله المؤمنين من البخل في الإنفاق في سبيل الله، سواء في الغزو أو الزكاة [٢]، فالله هو الغني وهم الفقراء.

من خلال العرض السابق نلاحظ أن بنية السورة الكريمة قائمة على الموازنة بين المؤمنين، وغير المؤمنين من الكفار والمنافقين وأهل الكتاب، في كل الأحوال المتباينة، من سلم وحرب، ودنيا وآخرة، وثواب وعقاب. وسوف نبدأ الآن ببيان عناصر الإحالة وأثرها في سبك النص القرآني في إطار تلك الموازنة بين الفريقين. وهذه العناصر هي: الضمائر، والإشارة، والاسم الموصول، والتكرار.

أ- الضمائر:

من المفيد جدًّا ملاحظة حركة الضمائر في النص اللغوي، حيث " تقوم بدور مهم في عملية التماسك النصي، من حيث الإحالات المتطابقة أو غير المتطابقة، أو التبادل بين الظاهر والمضمر"[٣]، كما أن تنوع الضمائر يضفي على النص حيوية وتنوعًا؛ الأمر الذي يدفع الملال، كما يحول دون تحويل النص إلى مجرد بوح ذاتي [٤].

---

(١) من هدي القرآن الكريم في علاقات المسلمين بغيرهم، ص٢١٩.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري، ج٣، ص٤٦٠.

(٣) الإبداع الموازي، د. محمد حماسة، ص١٧٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٧٩.

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن كل نص يضفي على الظاهرة نوعًا من الخصوصية الذاتية، فليس توظيف الضمائر واحدًا في كل نص، وينبغي للمفسِّر أن يكتشف الدلالات المستفادة بحسب طبيعة النص الذي يفسره [١]. فليس من الضروري_ مثلا_ أن تؤدي ضمائر الغيبة في نص ما الوظيفة نفسها التي تقوم بها في نص آخر؛ لأن لكل نص سياقه وملابساته التي تعطيه ذاتيته واستقلاله الدلالي عن أي نص آخر.

ورغم قيمة كل الضمائر في عملية الترابط النصي، فإن ضمير الغائب يعد أقوى الضمائر في ذلك الأمر؛ لأن مرجعه_ غالبًا_ ما يكون في النص، بعكس ضميري المتكلم والمخاطب، يقول أستاذنا الدكتور تمام حسان:" والمعروف أن ضمائر المتكلم تفتقر إلى متكلم، وضمائر الخطاب تفتقر إلى مخاطب، فيكون المتكلم بمثابة المرجع لضميره، ويكون المخاطب كذلك، أما ضمير الغيبة فيفتقر في العادة إلى مذكور يعد مرجعًا له، فلا يتضح معنى الضمير إلا بواسطة ذلك المرجع" [٢] ويقوم ضمير الغائب بوظيفتين رئيستين، هما" استحضار عنصر متقدم في خطاب سابق، أو استحضار مجموع خطاب سابق في خطاب لاحق" [٣] والمتأمل في السورة الكريمة يدرك مدى التلاحم الشديد بين آياتها عن طريق الإحالة بالضمائر_ وبخاصة ضمائر الغائب_ التي كانت حاضرة داخل الآيات وكذلك خُتمت بها كل الفواصل؛ الأمر الذي يجعل النص مترابطًا متماسكًا من أوله إلى آخره.

كما نشير إلى وظيفة دلالية أخرى للضمائر، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في الربط، تتبدى لنا بملاحظة توزيع الضمائر في الفواصل كما يأتي:

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٧٧.

(٢) البيان في روائع القرآن، ج١، ص١٣٧/١٣٨. وانظر: الخلاصة النحوية، ص٩٢.

(٣) لسانيات النص، ص١٧٥.

– ضمير الغائب الجمع " هم" = ٢٦ فاصلة.

– ضمير الغائبة " ها" = فاصلتان. (وللكافرين أمثالها. الآية ١٠) و(أم على قلوب أقفالها. الآية ٢٤). وكلتا الفاصلتين في حق الكفار.

– ضمير المخاطب الجمع " كم" = ١٠ فواصل. مع الأخذ في الاعتبار أن الضمير "كم" لم يأت فاصلة في القرآن كله إلا ثلاث عشرة (١٣) مرة فقط [١]، منها عشر (١٠) مرات هنا، بنسبة ٧٧% تقريبا.

فالملاحظ غلبة ضمير الغائب على الفواصل (٢٨ فاصلة)، بما يمثل نسبة ٧٣,٦% تقريبًا، في حين تمثل نسبة ضمير المخاطب (١٠ فواصل) بما يمثل نسبة ٢٦,٤ % تقريبًا، ولو دققنا لوجدنا غلبة ضمير الغائب الجمع في حق الكفار، حيث عاد ضمير الغائب عليهم في (٢١) فاصلة مباشرة، وفي فاصلتين كان السياق عائدًا على الكفار، بمجموع (٢٣) فاصلة، أي بما يمثل نسبة ٨٢,١٤%، في حين عاد ضمير الغائب الجمع على المؤمنين في خمس فواصل فقط، بنسبة ١٧,٨% تقريبًا.

ولا شك أن مجيء ضمير الغائب " هم" في (٢٦) فاصلة في السورة يمثل ظاهرة، ينبغي التوقف عندها لمعرفة سبب ذلك الشيوع؛ ذلك أنه من النادر جدًّا مجيء هذا الضمير فاصلة، ففي حين يشتمل القرآن الكريم على (٦٢٣٦) فاصلة [٢]، لم يأت الضمير (هم) فاصلة إلا (٣٠) مرة [٣]، منها (٢٦) هنا في هذه السورة الكريمة، بما يمثل نسبة ٨٦,٦%، وهي نسبة ذات دلالة. وقد ناسب شيوع ضمير الغائب الحضور القوي للاسم الموصول كما سنبين، إذ من المعروف أن الموصولات بصورة عامة تدل على الغيبة [٤].

---

(١) انظر: الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ص٢٩٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٤) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص٢٣.

ولعل تفسير ذلك- فيما نظن- راجع إلى طبيعة الموازنة بين الفريقين، حيث جاء ضمير الغائب ليؤكد أن الأحكام نهائية لا رجعة فيها، ولا يسمح فيها بنقاش أو مجادلة؛ الأمر الذي أدى إلى قلة ظهور ضمير المخاطب، وهو في غالبه كان عائدًا على المؤمنين لا الكفار، حيث ورد عائدًا على فريق المؤمنين في تسع (٩) مرات، وفي مرة واحدة كان الالتفات إلى الكفار بالخطاب لتوبيخهم وتهديدهم. يقول أبو حيان مؤكدًا ذلك:" فهل عسيتم: التفات للذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب عليهم على **سبيل التوبيخ**، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم"(١). ولابد أن يلفت انتباهنا سيطرة ضمير الغائب في الآيات الثلاث الأولى، حيث خلصت الآية الأولى للحديث عن الكفار، وخلصت الثانية للحديث عن المؤمنين، وجاءت الآية الثالثة شركة بين الفريقين، ولعل في ذلك إشارة جلية إلى المساواة التامة والعدل الكامل بين الفريقين في تلك الموازنة النهائية بينهما.

وفي جرس الهاء والميم الساكنة نوع من الحسم يناسب أولئك الذين كفروا بالله ورسوله، وآذوا المؤمنين وصدوا عن سبيل الله؛ لذلك نرجح الوقف على قوله تعالى " أولى لهم"، بوصفه تهديدًا ووعيدًا، وقد جاء ذلك الاستعمال في القرآن الكريم في قوله تعالى: " أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ". القيامة (٣٤-٣٥)، وكذلك كلام العرب، في قول الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ (٢)

فهو استعمال معروف، غير أن هناك من يرى أن " الآية الثانية متصلة بالأولى، واللام في قوله " لهم" بمعنى الباء، أي الطاعة أولى وأليق بهم، وأحق

(١) البحر المحيط، ج٨، ص١١٥. وانظر: الكشاف، ج٣، ص٤٥٧، والدر المصون، ج٩، ص ٧٠١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٩، ص٦٢٩٤.

لهم من ترك امتثال أمر الله"[١]. لكننا نرى أن الوقف وعدم الاتصال أولى؛ لأن السياق في السورة سياق تهديد ووعيد للكفار، كما ورد في السورة الدعاء على الكفار بالهلاك والخسران في قوله تعالى " والذين كفروا فتعسًا لهم وأضل أعمالهم"، ومن كلام الكفار قولهم " طاعة وقول معروف"، ويؤيد ذلك " قراءة أُبي " يقولون طاعة وقول معروف" وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة"[٢]. وأيضًا مما يؤكد أن هذا من قول المنافقين قول الله في سورة النساء: " ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا" الآية ٨١. وقد عقب الله عليهم بقوله " فلو صدقوا الله لكان خيرًا لهم" فهم منافقون، يحاولون خداع الرسول والمؤمنين.

كما يؤيد "الإنشاد المكتوب" – أي الرؤية البصرية لطريقة الكتابة [٣]– الانفصال وعدم الاتصال، وطريقة الكتابة تفسِّر السبب في طول بعض الآيات أو قصرها، فكل آية تمثل دفقة معنوية، تتحدد بموقع الفاصلة وهو نهاية الآية؛ وبناءً على ذلك فالوظيفة الأساسية للفاصلة_ وليست الوحيدة_ هي الدلالة، فالمعنى هو الذي يحدد الفاصلة، ومن الممكن أن يكون للفاصلة وظائف أخرى تركيبية أو جمالية، غير أن المعنى يبقى دائمًا هو الأساس في توجيه الفاصلة [٤]. وقد ختمت

---

(١) المرجع السابق، ج٩، ص٦٢٩٥.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان، ج٨، ص١١٤. وانظر: مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٨٢، والدر المصون، ج٩، ص ص٦٩٩-٧٠٠.

(٣) انظر: الإبداع الموازي، ص٨٠.

(٤) يرى أستاذنا الدكتور تمام حسان أن الفاصلة قد يكون لها غاية جمالية صوتية فقط ترتبط بموسيقى النص القرآني، وليس لها حينئذ قيمة نحوية أو دلالية. انظر: البيان في روائع القرآن، ج١، ص٢٠٢. ولمزيد من التفصيل حول هذه القضية، انظر: الفاصلة في القرآن، ص١٠٨ وما بعدها.

الآية الكريمة بقوله تعالى " فأولى لهم"، ولو كان المراد " فأولى لهم طاعة وقول معروف"، لما انفصل الكلام.

يتبقى في النهاية فاصلتان اثنتان جاءتا على الضمير "ها"، وكلتا الفاصلتين جاءت في مقام تهديد الكفار وزجرهم: (وللكافرين أمثالها. الآية ١٠) و(أم على قلوب أقفالها. الآية ٢٤)، " ولما كانت حركة الهاء أو الكاف في ضمير الجمع على الضم ناسبتها الضمة على" أمثال" و" أقفال"[١]. كما أن صوت الهاء بجرسه صوت مهموس مرقق، يصدر من أقصى الحلق، وبعده ألف الإطلاق، مما يضفي جوًّا من الوعيد والإنذار ممثلا في انطلاق الصوت بحرية دون قيود، كأنه صرخة في وجوه أولئك الكافرين.

وبهذا يتبين لنا أن الإحالة بالضمائر لم تقتصر وظيفتها على السبك أو الترابط النصي، بل كان لها وظيفة دلالية أخرى داخل النص، تمثلت في تقوية المعنى العام للسورة الكريمة.

ب _ الإشارة:

إن الإحالة عن طريق الإشارة عنصر أساسي من عناصر السبك أو الربط في النص، إذ تشير إلى ما تقدم من قول أو حدث، فتصبح بذلك وسيلة من وسائل الإيجاز والربط [٢]. كما يمكن "للإشارة أن تلخص قولا أو حدثًا سابقًا، فتربط بين الإشارة وبينه برباط السببية"[٣]. والملاحظ غلبة هذه الصورة الأخيرة على أسماء الإشارة في السورة الكريمة، حيث وردت في سياق السببية أو التعليل، كأن الله تعالى يبين لنا السبب في تفضيل المؤمنين على الكفار في تلك الموازنة.

---

(١) الفاصلة في القرآن، ص ١٩٧.

(٢) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص١٦٨. وللمزيد عن الإشارة وأنواعها انظر: تحليل النص، د. محمود عكاشة، ص٢٣٧ وما بعدها.

(٣) الخلاصة النحوية، ص٩٢.

وبدا ذلك واضحًا في استعمال اسم الإشارة "ذلك"، الذي تكرر في السورة الكريمة سبع مرات، جاء في خمس منها في مفتتح الآية رابطًا بينها وبين مجموعة من الجمل قبلها:

– " ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ " الآية ٣. وقد تكرر في هذه الآية لتأكيد المعنى نفسه.

– "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" الآية ٩.

– "ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ " الآية ١١.

– "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ" الآية ٢٦.

– "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" الآية ٢٨.

ونلاحظ اقتران اسم الإشارة بالباء السببية في كل هذه المواضع، وفي مرة واحدة جاء اسم الإشارة "ذلك" داخل الآية الرابعة: " فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ **ذَٰلِكَ** وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ". وهو في هذا الموضع يفيد بيان الحكم السابق عليه وتقريره في سياق السببية كذلك لكن دون اقترانه بالباء، حيث يشير إلى كيفية تعامل المؤمنين مع الكفار في حالة الحرب، وأن الله له حكمة في مقاتلة المؤمنين لهم، وهي الابتلاء والاختبار؛ لأن الله تعالى لو أراد إهلاك الكفار لفعل دون قتال أو حرب. ويطلق على هذا الاستعمال "الإحالة الموسعة"، حيث يمكن الإحالة إلى" جملة بأكملها، أو متتالية من الجمل"[1]. والإحالة في كل هذه

(١) لسانيات النص، ص١٩.

المواضع إحالة قبلية، في سياق بيان السبب أو العلة في الحكم السابق عليها، فهي تربط بين الكلامين مع بيان السبب، يقول القرطبي عن كلمة "ذلك": " وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام"(١). ففي الآية **الثالثة**_ على سبيل المثال_ الإشارة إلى إبطال الله لأعمال الكفار، ومباركة أعمال المؤمنين وإصلاح حالهم، والسبب في ذلك الحكم السابق هو اتباع الكفار للباطل، واتباع المؤمنين للحق، فليس ثَمَّ ظلم للكفار، إنما هو اختيارهم بإرادتهم الكاملة؛ فلذلك استحقوا ما وقع عليهم من عقاب.

كما ورد اسم الإشارة " أولئك" مرتين:

-" وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ". الآية ١٦.

- " أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ". الآية ٢٣.

وفي الموضعين نجد الإحالة إلى الطرف الأول في الموازنة وهم الكفار، فيؤكد حكم الله عليهم بالإضلال والطبع على القلب: " أولئك الذين طبع الله على قلوبهم"، أو يؤكد استحقاقهم لعنة الله عز وجل وطردهم من رحمته: " أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم". وقد ناسب ذلك استعمال اسم إشارة للبعيد؛ تأكيدًا لمروقهم وبعدهم عن مغفرة الله.

ج-: الاسم الموصول:

نلاحظ في هذه السورة الكريمة حضورًا مميزًا للاسم الموصول، حيث اشتملت خمس وعشرون آية على اسم موصول أو أكثر، بما يمثل نسبة ٦٦% تقريبًا من السورة الكريمة، ولعل ذلك يتوافق مع شيوع ضمير الغائب كما أسلفنا، سواء في حق الطرف الأول وهم الكفار ومَن على شاكلتهم من المنافقين وأهل

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٦٢٨٠. وانظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٧٦.

الكتاب، أو في حق الطرف الثاني وهم المؤمنون، لتبقى الموازنة بين الفريقين عامة شاملة لكل من تنطبق عليه هذه الخصال.

وبناء على ذلك رأينا استعمالا واسعًا للاسم الموصول " الذين"، إذ تكرر أربعًا وعشرين (٢٤) مرة في السورة الكريمة، دون تحديد للمقصود به: هل هم" كفار قريش، أو المطعمون يوم بدر، أو أهل الكتاب"[١]، حيث تعددت الآراء في المقصود بهؤلاء الذين كفروا، ومن المعلوم أن الاسم الموصول" لا يكون له معنى إلا مع ذكر موصوفه أو تقديره في ضوء المقام، وبهذا الذكر أو التقدير **يربط** الموصول بين موصوفه وجملة الصلة" [٢]، والملاحظ هنا أن الإحالة خارجية وليست نصية، حيث لم يذكر موصوف قبل الاسم الموصول في النص، ويبدو ذلك مناسبًا في ظل تلك الموازنة العامة؛ إذ لا يعنينا كثيرًا طبيعة هؤلاء الكفار، فالمقصود هو العموم البحث في أي زمان وفي أي مكان، لا مجرد مجموعة مُعَينة.

والمتأمل لمفتتح السورة يراه فريدًا في نوعه؛ إذ جاء مخالفًا للسور السبع التي قبله في ترتيب التلاوة، وهي: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وكلها تبدأ بقوله تعالى " حم"، فكأن افتتاح السورة هنا يكسر تلك الدائرة السابقة ليبدأ دائرة دلالية منفصلة جديدة، يلفت فيها الانتباه إلى قضية الموازنة بين المؤمنين وغيرهم.

ولم يرد الافتتاح بالاسم الموصول المجرد من أي سابقة في أي سورة من سور القرآن الكريم، فليس ثمة سورة تبدأ مباشرة بالاسم الموصول، وقد لفت ذلك الافتتاح نظر المفسرين، حيث يرى الطاهر بن عاشور أن الافتتاح بالموصول وصلته، فيه " تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول

---

(١) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٤١.

(٢) الخلاصة النحوية، ص٩٣.

وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود"[١]، ويصف غيره هذا الافتتاح بأنه" افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة أو تمهيد"[٢].

غير أننا نرى_ إضافة لما سبق_ أن الافتتاح بهذا العموم يوحي بأنه **قانون وحكم عام** نهائي في كل كافر، وفي كل مؤمن؛ لذلك لا نرى ضرورة لعود الاسم الموصول في مفتتح السورة على كلمة " الفاسقين" في نهاية سورة الأحقاف، وهي السورة السابقة لسورة محمد، يقول الرازي: " أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله تعالى" فهل يهلك إلا القوم الفاسقون" الأحقاف: الآية ٣٥"[٣]، فقد يكون ذلك وجيهًا ومقبولا، لكننا نرى أن الأَوْلى بقاء الاسم الموصول عامًّا دون قصد فئة معينة، وبأداء صوتي مستقل يفيد الحسم المطلوب، ونهائية الحكم، أما لو جعلنا " الذين" نعتًا لكلمة الفاسقين في السورة التي قبلها، فسوف تكون هناك سكتة خفيفة ثم الاستئناف بجملة " أضل أعمالهم"، وقد لا يكون ذلك مناسبًا للمعنى المقصود في مستهل هذه السورة الكريمة.

وإن كان التركيب الافتتاحي قد خلا من أي سابقة، كالنواسخ مثلا، ليقرر هذا العموم في مفتتح السورة، فإنه في غير آية الافتتاح اقترن بالحرف الناسخ " إنّ"، مثل: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ". الآية ٣٢، ومثل: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ". الآية ٣٤. وهذا كثير في غير موضع في القرآن، مثل: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ

(١) التحرير والتنوير، ج٢٦، ص٧٣.

(٢) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٢٨٠.

(٣) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٤١.

اللَّه قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا". النساء: ١٦٧، ومثل: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا" النساء: ١٦٨.

كما نلاحظ أن الاسم الموصول " الذين" قد أريد به الإخبار المجرد، دون تضمينه معنى الشرط، فمن المعروف أن الموصول قد يتضمن معنى الشرط، فيقترن خبره بالفاء، نحو قوله تعالى:" الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" البقرة: ٢٧٤، ونحو:" وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا" النساء:١٥، وحين يقصد بالموصول مجرد الإخبار، لا يقترن الخبر بالفاء، نحو قوله تعالى:" الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " البقرة: ٢٦٢، ونحو قوله تعالى:" الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ"[1] الرعد: ٢٩، فالمقصود هنا هو مجرد الإخبار لإفادة نوع من العموم المجرد المستفاد من الاسم الموصول؛ لذلك خلت جملة الخبر من الفاء الدالة على تضمن الموصول لمعنى الشرط.

وقد عبَّر الله _تعالى_ عن هذا الحكم العام بما يفيد ثبوته وتحققه في أي زمان، وفي أي مكان، وعلى أي فئة، فعبَّر بالجملة الاسمية، فتقدم الاسم الموصول، وتأخرت جملة الخبر الفعلية، كأنه إخبار مطلق في **صيغة قانونية نهائية ثابتة**، إضافة إلى أن ذلك التقديم أفاد تأكيد المعنى عن طريق أسلوب القصر، فهؤلاء_ لا غيرهم_ هم من يُضل الله أعمالهم. ويلفت الانتباه ذلك التشابه التركيبي_ إن لم يكن تطابقًا_ في بداية الموازنة بين الفريقين، كأنما يسوي بين طرفي الموازنة حتى في التركيب اللفظي، فقد جاءت الفاصلة متفقة بين الطرفين،

(١) انظر: البيان في روائع القرآن، ج٢، ص٢٤، و ج١، ص ٣٧٩.

وهي ضمير الجمع الغائب "هم"، وأما المكونات التركيبية فنجدها في حق الكفار وهم الطرف الأول على النحو الآتي:

- اسم موصول+ جملة الصلة+ جملة معطوفة+ جملة الخبر الفعلية بالفعل الماضي.

وفي حق الطرف الآخر من الموازنة وهم المؤمنون، نجد التركيب مكوناً من:

- اسم موصول+ جملة الصلة+ جملة معطوفة+ جملة معطوفة+ جملة اعتراضية+ جملة الخبر الفعلية بالفعل الماضي+ جملة معطوفة.

فالتشابه واضح في التركيبين، غير أن التركيب في حق المؤمنين زاد بجملة معطوفة وجملة اعتراضية بغية التوضيح والبيان لجزاء كل فريق، كما أن للمؤمنين زيادة وهي صلاح كل أحوالهم. والتعبير بالفعل الماضي في حق الطرفين يوحي بأن الأمر منقضٍ، ولا رجعة فيه ولا نقاش، فقد تم الحكم، ولا معقب لحكم الله في الطرفين.

كأن الآيات تقدم في البداية ملخصًا لكل ما سوف يأتي في السورة الكريمة؛ لذلك تبين الآيات بعد هذا الافتتاح الأسباب والحيثيات التي اقتضت هذا الحكم الحاسم في البداية، وذكرت الفروق بين طرفي المقابلة بصورة عامة هنا، ثم فصلت في بقية الآيات؛ الأمر الذي زاد النص تماسكًا وترابطًا.

د- التكرار:

تمثل ظاهرة التكرار مظهرًا من أهم مظاهر الترابط النصي، وقد بيّنا فيما سبق دلالة تكرار اسم الإشارة، وكذلك تكرار ضمير الغائب في فواصل السورة الكريمة، وسوف نتناول بعض مظاهر التكرار الأخرى هنا.

من صور تكرار التراكيب ما جاء في الآية الأولى، وهو قوله تعالى" الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ "، حيث تكرر على النحو الآتي:

-" الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.... الآية ٣٢

- " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ..... الآية ٣٤

نلاحظ تكرار التركيب في أواخر السورة ليربطها بمفتتحها، ونرجح_ كما يرى العلامة الطاهر بن عاشور_ أن المقصود بالكفار في الآيتين الأخيرتين هم أنفسهم المذكورون في الآية الأولى(١)، وقد عاد الكلام عليهم بعد الانتهاء من الكلام على المنافقين" عودًا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين"(٢)، وفضلا عن هذا الترابط النصي فإن التكرار يؤكد أن كفرهم وصدهم عن سبيل الله كان السببَ الأبرز لما صاروا إليه من ضلال، كما أكد التكرار هنا مخالفتهم لما جاء في قوله تعالى في بداية السورة" وآمنوا بما نزل على محمد"، فهؤلاء" شاقوا الرسول" ولم يطيعوه، ولم يؤمنوا بما أنزل عليه، فكان ذلك سببًا إضافيًّا لهلاكهم وإبطال أعمالهم.

ومن تكرار التراكيب قوله تعالى" من بعد ما تبين لهم الهدى" فقد ورد مرتين:

- " إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ " الآية ٢٥.
- " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى** لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ " الآية ٣٢.

ويرى الكرماني أن ذلك ليس من قبيل التكرار؛ لأن الآية الأولى نزلت في اليهود، والآية الثانية نزلت في قوم ارتدوا(٣)، غير أننا نرى أنه تكرار لتأكيد أن هؤلاء وهؤلاء بينهما قاسم مشترك، وهو أنهما عرفا طريق الحق والاستقامة، لكنهما آثرا الاستكبار واتباع الهوى والشيطان، فأضلهم الله تعالى، وأبطل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ج٢٦، ص١٢٥.

(٢) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) انظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، ص ١٩٤. وانظر: بصائر ذوي التمييز، ج ١، ص ٤٣١.

أعمالهم، فهم ضلوا عن علم لا عن جهل، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك المعنى في قوله تعالى" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" الجاثية: ٢٣.

ومن صور التكرار الذي يربط بين الآيات كلها تأكيد السورة في أكثر من موضع قضية إبطال قيمة العمل وإهداره في حق الفريق الأول وهم الكفار، في حين يعلي قيمة العمل ويزيده في حق الفريق الآخر، وهم المؤمنون، بل يغفر الله لهم الأعمال غير الصالحة إن وجدت، وقد بدا ذلك واضحًا فيما يأتي:

في حق الكفار	**في حق المؤمنين**
– أضل أعمالهم: الآية ١	– كفر عنهم سيئاتهم: الآية ٢
– وأضل أعمالهم: الآية ٨	– فلن يضل أعمالهم: الآية ٤
– فأحبط أعمالهم: الآية ٩	– والله يعلم أعمالكم: الآية: ٣٠
– فأحبط أعمالهم: الآية ٢٨	– ولا تبطلوا أعمالكم: الآية ٣٣
– وسيحبط أعمالهم: الآية ٣٢	– ولن يتركم أعمالكم: الآية ٣٥

فقد تكرر ذلك المعنى ليظهر الفارق البيِّن بين الفريقين، ولعل أكبر خسارة يصاب بها الإنسان هي أن يرى عمله صار هباء منثورًا، لا قيمة له ولا وزن.

وللرازي التفاتة طيبة في العدول عن صيغة الماضي (أضل، فأحبط) في أول السورة إلى صيغة المستقبل في آخرها(سيحبط)، يقول:" فإن قيل: قد تقدم في أول السورة أن الله تعالى أحبط أعمالهم، فكيف يحبط في المستقبل؟ فنقول": الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن المراد من قوله تعالى "الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله" في أول السورة المشركون، ومن أول الأمر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة. والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول

فأحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول، ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل والتوحيد، والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلا ولا كان معترفا بالحشر.

والثاني: هو أن المراد بالأعمال ههنا مكايدهم في القتال، وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله، حيث يكون النصر للمؤمنين، والمراد بالأعمال في أول السورة هو ما ظنوه حسنة"(١).

كما نلاحظ التعبير بصيغة الماضي " أضل أعمالهم" مع الكفار، وعبر بصيغة المضارع المنفي مع المؤمنين " فلن يضل أعمالهم"، فكأن العمل عند الكفار عدم لا وجود له أساسًا، أما المؤمن فعمله" كلما ثبت عليه أثبت عليه، فلن يضل للتأبيد، وبينهما غاية الخلاف، كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد"(٢). ومن قبيل ذلك استعمال الماضي " أصلح" والمستقبل " يصلح" في قوله تعالى " وأصلح بالهم" الآية: ٢، وقوله تعالى " سيهديهم ويصلح بالهم" الآية: ٥. يقول الرازي : " والماضي والمستقبل راجع إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان والعمل الصالح، وذلك كان واقعًا منهم فأخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع، وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل، فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال، لأن قوله تعالى " فإذا لقيتم" يدل على الاستقبال فقال " يصلح بالهم"(٣)

وقد يكون التكرار بالمعنى، نحو قوله تعالى" فقد جاء أشراطها" الآية: ١٨، فهذا المعنى تكرار وتأكيد لقوله تعالى في بداية السورة" وآمنوا بما نزل على محمد" الآية: ٢، يقول القرطبي عن قوله تعالى" فقد جاء أشراطها": " أي أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن محمدًا- صلى الله عليه وسلم-

(١) مفاتيح الغيب، ج١٤، ص٢٩٤/٢٩٥.
(٢) المرجع السابق، ج١٤، ص٢٥٨.
(٣) المرجع السابق، ج١٤، ص٢٥٩.

آخر الأنبياء، فبعثُه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك والحسن. وفي الصحيح عن أنس قال قال رسول الله: بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى"(١)

ومن صور التكرار التي تمثل ظاهرة في هذه السورة الكريمة شيوع صيغة" أفعل"، سواء في صورة الفعل الماضي، أو المضارع، أو الاسم. ولنلاحظ الآتي:

-" .... أضل ....." الآية: ١
- " آمنوا.... وآمنوا .... وأصلح..." الآية:٢
- " ... آمنوا" الآية: ٣
- " .... أثخنتموهم ..... فلن يضل ..." الآية: ٤. مضارع الفعل أضل.
- " ...ويصلح..." الآية:٥. مضارع الفعل أصلح.
- " ويدخلهم...." الآية:٦. مضارع الفعل أدخل.
- " ... آمنوا ..." الآية:٧.
- " .... وأضل ...." الآية:٨
- " .... ما أنزل الله فأحبط..." الآية:٩.
- " ... آمنوا ....." الآية:١١.
- " .... يدخل.... آمنوا...." الآية: ١٢. مضارع أدخل.
- " ... أشد ... أخرجتك...أهلكناهم ...." الآية: ١٣.
- " .... أوتوا ...." الآية:١٦
- " ...وآتاهم ... " الآية:١٧..
- " .... آمنوا... أنزلت ... فأولى لهم" الآية:٢٠.
- " .... أن تفسدوا ..." الآية ٢٢. مضارع أفسد.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٩، ص٦٢٩١. وانظر: الكشاف، ج٣، ص ٤٥٦.

- " ... فأصمهم وأعمى أبصارهم " الآية ٢٣.
- " .... وأملى لهم" الآية ٢٥.
- " .... سنطيعكم .... إسرارهم". الآية ٢٦. مضارع أطاع، ومصدر أسرّ.
-" ... ما أسخط ..... فأحبط...." الآية ٢٨.
-" .... يخرج ..." الآية ٢٩. مضارع أخرج.
-" .... لأريناكهم ...." الآية ٣٠.
- " ... وسيحبط..." الآية ٣٢. مضارع أحبط.
-" .... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا ...." الآية ٣٣. أمر الفعل أطاع، ومضارع أبطل.
-" .... وأنتم الأعلون...." الآية ٣٥. جمع الأعلى.
-" ..... وإن تؤمنوا.... يؤتكم ...." الآية ٣٦. مضارع آمن، ومضارع آتى.
- " .... فيحفكم .... ويخرج..." الآية ٣٧. مضارع أحفى، ومضارع أخرج.
- " .... لتنفقوا.." الآية ٣٨. مضارع أنفق.

وهذا التكرار لصيغة " أفعل"، يكسب النص تماسكًا وترابطًا، كما نلاحظ أن الغالب هو صيغة الفعل أفعل المزيد بهمزة التعدية، كأن الآيات تقرر قوة الله الغالبة القادرة على الحكم والفصل بين العباد، كما تقرر تدخُل الكفار ومَن على شاكلتهم في اختيار طريق الهلاك، فقد اختاروه بإرادة منهم دون قهر أو جبر؛ فلذلك استحقوا عقاب الله القادر الغالب. وقد تدل على سيطرة الشيطان على الكفار وتمكنه منهم، كقوله تعالى " الشيطان أملى لهم". وأحيانًا تدل على تكريم المؤمنين والاحتفاء بهم، كقوله تعالى " ويدخلهم الجنة" فكأن الله يأخذ بأيديهم إلى

الجنة، تكريمًا وتشريفًا لهم. ولصيغة " أفعل" حضور بارز في القرآن الكريم كله لا في هذه السورة فقط؛ فهي أكثر صيغة مزيدة وردت في القرآن الكريم [١].

وفي النهاية، يتبين لنا أن الإحالة بمختلف عناصرها (الضمير، والإشارة، والموصول، والتكرار)، تمثل أداة من أهم أدوات السبك في النص، حيث بدا النص مترابطًا متماسكًا من بدايته حتى نهايته، ولم تكن تلك هي الوظيفة الوحيدة للإحالة بل إنها تجاوزت تلك المهمة في النص القرآني لتقوم بوظائف دلالية مقصودة تخدم موضوع النص وتبرزه في أبهى صورة.

ونشير إلى أننا ما زلنا في حاجة ماسة إلى كثير من الدراسات التطبيقية لإرساء قواعد منضبطة لنحو النص في العربية؛ ذلك أن معظم قضايا نحو النص تخضع لذوق الباحث وثقافته، أو بعبارة أخرى، مازالت الذاتية تغلب على أحكام نحو النص، في حين أن النحو بمفهومه التقليدي ينأى عن الذاتية، ونحن ندرك أن المعيارية التامة في نحو النص تخالف طبيعته وخصوصية القضايا التي يعالجها، غير أن كثرة الدراسات التطبيقية ستقلل_ نوعًا ما_ من الذاتية، كما ستوجِد أرضًا مشتركة من المفاهيم والتصورات بين الباحثين على اختلاف مشاربهم وثقافتهم، ويمكننا في النهاية أن نصبغ نحو النص بالصبغة العربية القائمة على ثقافتنا وتراثنا العظيم.

* *

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، ج٤، ص٨٤.

المصادر والمراجع

- الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١.
- الإحالة في القرآن الكريم: دراسة نحوية نصية، د. تامر أنيس، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.
- الإحالة في نحو النص: دراسة في الدلالة والوظيفة، د. أحمد عفيفي، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة ونحو النص)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٥.
- أسرار التكرار في القرآن، الكرماني، دار الاعتصام، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨.
- البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
- بصائر ذوي التمييز، الفيروزابادي، ت محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٣.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٠هـ، ١٩٦٠م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- تحليل النص، د. محمود عكاشة، مكتبة الرشد، ط١، ٢٠١٤.
- تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الغد العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠.

- الخلاصة النحوية، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٠-٢٠٠٠.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، تحقيق الشيخ محمود شاكر، دار الحديث، القاهرة.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٣.
- علم لغة النص، د. سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.
- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار، عمان، ط٢، ١٩٨٦.
- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، د. سعد مصلوح، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ٢٠٠٣.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت.
- الكشاف للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١،١٩٩١.
- مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، د. إلهام أبو غزالة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- مفاتيح الغيب للرازي، دار الغد العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- من هدي القرآن الكريم في علاقات المسلمين بغيرهم، د. محمد شريف، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٢.
- نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، د. مصطفى النحاس، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١، ٢٠٠١.

- نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١.
- النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي_ الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦.
- النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨.

* * *